(٧)

الخلق العظيم

وصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأنه على خلقٍ عظيم، وجعل الرسول ﷺ من أسباب رسالته أن يتمم مكارم الأخلاق ، فقال: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وفي بعض الروايات الصحيحة « لأتمم حسن الأخلاق »[١].

والناس يعرفون أن ذوي الخلق الحسن منهم يكونون عليه في أوقات رخائهم وأمنهم وراحتهم ، فإذا انشغل الواحد منهم بهمٍ من الهموم العارضة ، أو ضاقت به بعض أحواله ، أو استغرق في شأن من الشؤون العامة أو الخاصة تبدل منه

---

(١) هذا الحديث روي بألفاظ (مكارم) و(صالح) و(حُسن) الأخلاق؛ فأخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة بلفظ «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، رقم ٤٢٧٤، من طبعة دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢، بتحقيق محمود مطرجي؛ ورواه مالك في الموطأ بلاغًا برقم ٣٨٧٠ بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»، وقال عنه ابن عبد البر في التمهيد ، جـ٢٤ ص ٣٣٣ : «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح، عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ»؛ ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة؛ وأورده الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٠٧؛ وانظر الألباني، الأحاديث الصحيحة، طبعة المكتبة الإسلامي جـ١ ط٤ ؛ ١٩٨٥ رقم٤٥.

حسن الخلق سوءًا ، وأصبحت سعة صدره ضيقاً ، وصدَّ عنه أقرب الناس إليه حتى أهله وولده ، بل ربما كان على هؤلاء أجرأ منه على سواهم لأنهم يقبلون منه ، ويحتملون له ، مالا يقبله غيرهم ولا يحتمله .

وهذا كله سلوك إنساني طبيعي لأنك لا تتوقع من الناس أن يكونوا على الجادة في أحوالهم كافة ، أو أن يكونوا في رضا دائم لا يخالطه سخط ، أو في هدوء مستمر لا يشوبه غضب ، ولا يكون الرجل في غضبه كما يكون في هدوئه ولا في سخطه كما يكون في رضاه اللهم إلا إن كان من الأفذاذ النوادر الذين يتخلقون بأخلاق الأنبياء وقليل ما هم !

والقارئ لسيرة الرسول ﷺ لا يجده تخلى عن حسن خلقه ، وكريم طبعه ، في أي موقف من مواقف حياته ، لا في الإقامة ولا في السفر ، ولا في الحرب ولا في السلم ، ولا في الرضا ولا في الغضب ، بل كان حسن الخلق ولين الطبع ملازمين له حتى قال ربنا مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

وفي الحديبية تكررت المواقف التي تبدى فيها حسن خلق الرسول ﷺ ولين جانبه وسعة صدره. فقد ذكرت من قبل أنه لما قال له عبد الله بن أبي بن سلول : استغفر لي ،

استغفر الله له بعد ما كان منه من جحد معجزة فيضان البئر بالماء بعد أن كادت تجف ، ولم يكن ذلك إلا حسن صحبة من رسول الله ﷺ حتى للمنافق الذي عرف نفاقه[1].

ومن هذه المواقف النبوية المضيئة أن عمرو بن سالم وبُسْر ابن سفيان الخزاعيين أهديا إلى رسول الله ﷺ بالحديبية غنماً وجَزوراً (الجَزُور الواحد من الإبل يطلق على الأنثى والذكر) وأهدى عمرو بن سالم ـ أيضاً ـ لسعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، وكان صديقاً له ، جُزراً ، فجاء سعد بالجُزُر (جمع جزور) إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عمراً أهداها له ، فقال: « وعمرو قد أهدى لنا ما ترى ، فبارك الله في عمرو »[2].

ثم أمر رسول الله ﷺ بالجزر أن تنحر وتقسم في أصحابه، وفرَّق الغنم عن آخرها ، وجعل قسمتها بين أصحابه جميعاً ، الرجال منهم والنساء ، حتى كان نصيب أم سلمة من لحم الجزور كنصيب الرجل من أصحاب النبي ﷺ، وشرَّك في الشاة التي كانت من نصيبه (أي جعلها شركة تقسم بين أصحابه) فكان لأم سلمة نصيب منها .

---

(١) راجع فصل (كبر كاذب).

(٢) الصالحي ، السابق ، ص ٧٠.

ولم يكن ذلك أمراً غير معتاد من رسول الله ﷺ ، بل كان ذلك سلوكه الدائم مع نسائه رضي الله عنهن ، ففي الحديث الصحيح أن رجلاً فارسياً كان جاراً لرسول الله ﷺ ، وكان يجيد صنع المرق ، فصنع لرسول الله ﷺ مرقاً ثم جاء يدعوه ، فقال: «وهذه؟» أي عائشة (يعني هل تدعوها معي؟) فقال «لا». قال رسول الله ﷺ: «لا». ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ : «وهذه؟» قال : «لا». قال رسول الله ﷺ : «لا». ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ : «وهذه؟» قال الرجل : «نعم !» فقام النبي ﷺ وعائشة يمشيان حتى أتيا منزله وأكلا [1].

فحسن معاملة الرسول ﷺ لنسائه كانت من خلقه العظيم المستمر الذي لا يصرفه عنه حال من أحواله في سفر ولا حضر. وانظر إلى دعائه لعمرو بن سالم مكافأة على هديته ، وقد أمر لبسر بن سفيان بكساء للتعبير عن تقديره ﷺ لما صنعاه؛ ثم إلى أمره بقسمة الجزر بالسوية بين أصحابه الرجال والنساء ، تجد ذلك كله دليلاً على الخلق العظيم الذي وصفه القرآن به فكان علامة له لا يخطئها الناظر في سيرته ، ومسلكاً دائماً لا يتغير في أحواله كلها ﷺ .

* * *

(١) رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه الحديث رقم ٢٠٣٧ .